ذاكرة عراقية
العدد (2) الخميس (6) آذار 2008
NO. (2) Thu . (6) March

عفيفة اسكندر .. صوت الطرب الأصيل و قلب الجمال النابض

عفيفة اسكندر ذلك الصوت المغرد الجميل هي قلب الجمال النابض أودعت يد القدر فيها أوصافا بدنية وخلالا نفسية ، فهي لا تستطيع ان تخفي محاسنها بل تبدت وتجلت في أكمل جمال في نظر عشاق الجمال... جمال ساحر من صنع الخلاق لا مصنع الحلاق.وهذه المطربة الرائعة انكفأت على نفسها ، وصمتت صمتا كبيرا ، وقبل أوانها ، ومن دون أسباب معروفة... وبذلك فقدت اسماعنا خامة فنية ناصعة ، بعد ان قدمت للفن العراقي أروع الأغاني وأجمل القصائد ، وهي ناحية تميزها عن بقية المطربات ، اذ انها قدمت أكثر من خمسين قصيدة مغناة ، والقصيدة من أصعب أنواع الغناء.

تحقيق اجراه قحطان جاسم

والذي عاصر فترة تألقها وعاش سماع حلاوة صوتها عبر مسيرتها الطويلة يعرف الكثير عن فنها وسيرتها ودورها الفني في حياة العراقيين، وبما انها اختارت الصمت بنفسها وترفض الادلاء بأي أحاديث صحافية، فقد ارتأينا ان تكون حلقاتنا ملتقى لكل أصدقائها ممن عاش ذكرياتها الفنية أو ساهم فيها وبما يعطي صورة قريبة عن حياة هذه الفنانة الرائعة للأجيال الحالية التي لا تعرف عنها الكثير.

المرحوم الأستاذ (سعاد الهرمزي) الاذاعي المعروف الذي قدم للغناء العراقي عدة دراسات وكتب فنية وكان أحد الذين كتبوا عن عفيفة في كتبه ومقالاته وقد التقيته قبل وفاته فقال عنها: عفيفة اسكندر لون فريد في الغناء لا يضاهيه أو يقترب منه أي لون آخر من الوان الغناء العربي، وهو أيضا لون محير فلا تدري هل هو مونولوج أو غناء خفيف أو غناء عاطفي... أو هو كل ذلك معا!

أما صوتها وأداؤها فيستقلان بمواصفات مميزة وخصائص متفردة ويبعدان ابتعادا غير مألوف عن صوت وأداء أي مغنية في الوسط الغنائي العربي.

من أين استقت شخصيتها الغنائية؟

وأمام هذا الغموض الذي يلف هذا الصوت المتفرد يوضح الأستاذ (الهرمزي) من اين استقت المطربة عفيفة اسكندر شخصيتها الغنائية المستقلة؟ فعاد بذاكرته الى السنوات الماضية والى الأيام الخوالي التي برزت فيها هذه الفنانة، وقال: انه سؤال صعب لا يمكن الرد عليه بسهولة الا اذا عدنا الى الموهبة لنعزو اليها قدرتها على تكوين هذه الشخصية الصوتية الفريدة. ولأن عفيفة اسكندر غنت الشعر فإن الكلمة عندها تخرج صافية بلفظها وفصاحتها وموسيقيتها وهي في كل ما غنت شعرا أو زجلا أقرب الى الاكتمال اللفظي والاحساس بالكلمة وحسن الاخ

ضي
ر
الياس على
الناي وعلى
العود كان

تيار الذي تبدو فيه ملكتها على أشدها في رهافة الحس ورقة الشعور، وهي لم تكن تحسن اختيار الشعر أو الزجل فحسب، بل كانت فطنتها ودرايتها وتذوقها الموسيقى يمتد الى اللحن كذلك.

تقبل الألحان المنسجمة مع صوتها

والمطربة عفيفة اسكندر تختار ألحان أغانيها بدقة شديدة (يواصل الهرمزي حديثه) وقد رفضت كثيرا من الألحان حتى من أولئك الذين كانوا يقفون في الصدارة من ملحني القطر ولم تقبل لحنا قط من أي ملحن مهما علا قدره الا اذا كان منسجما مع صوتها فكأنه قد قيس عليه... وعلى اثر موقفها هذا من الألحان، قال عنها العديد من الملحنين والمؤلفين ان أصعب مغنية هي عفيفة اسكندر وهي صعبة فعلا لأنها كانت تدقق في الاختيار ولا تغني أي لحن أو أي كلام.

جابو كلي أو المسدس السريع

ومن الذكريات الأخرى التي ذكرها (الهرمزي) عن هذه الفنانة الرائدة انها - كما يقول - ظهرت للمرة الأولى على المسرح في ملهى صغير بمدينة اربيل في أواسط الثلاثينيات، وكانوا يسمونها في تلك الفترة بـ (جابوكلي) وتعني المسدس السريع الطلقات.

وماذا عن أبرز الملحنين الذين تعاملت معهم المطربة عفيفة، فقال: هناك مجموعة كبيرة من خيرة رواد التلحين في القطر، وقدمت العديد من الأغنيات الجميلة التي تشكل الآن ثروة كبيرة لتراثنا الغنائي، وأبرز من تعاملت معه الفنان ؟سمير بغدادي؟ أو وديع خوندة ورضا علي وناظم نعيم وكريم بدر وأحمد الخليل وعباس جميل وياسين الراوي وخزعل مهدي وسواهم.

وحتى فرقتها الموسيقية التي تصاحبها في الغناء تختارها بدقة وعناية كي تتناسب مع صوتها وطريقتها في الأداء. وكما يقول (الهرمزي) ان حفلاتها كانت أسبوعية وتتضمن في كل حفلة (وصلتين) بحدود ساعة لكل وصلة غنائية وفي بداياتها الأولى كانت فرقتها تتكون من عناصر فنية ثم تركوها وسافروا فبدأت بالتعاون مع مجموعة من الموسقيين أبرزهم سالم حسين وخضير الشبلي وجمال سري على آلة القانون وكريم بدر وكريكور برصوميان وجوزيف حنا وجميل بشير على الكم ان وخ

الفنانان منير بشير روحي الخماش كما كان الفنان حسين عبدالله يشارك في حفلاتها كضابط ايقاع.

وعن الحوادث والمواقف التي لا يعرفها الكثيرون من الناس عن المطربة عفيفة اسكندر يقول الهرمزي: لها ذكرى مع موسيقار الأجيال الفنان محمد عبدالوهاب لا أظن انها ستنساها أبدا وهي مثلت معه في فيلم ؟يوم سعيد؟ إخراج ؟محمد كريم؟ ولحن لها أغنية غنتها في الفيلم عام ١٩٤٠ لكن عند عرض الفيلم لم تقدم الأغنية لأن المخرج اضطر الى حذفها مع مشاهد أخرى بعد اكتشافه ان الفيلم قد تجاوز الساعتين وهو وقت طويل ويمله مشاهدو السينما.

ومن الأمور الأخرى التي اتذكرها لقاؤها مع الموسيقار فريد الاطرش والاتفاق بينهما للتمثيل والغناء معه في أحد الأفلام السينمائية، وكادت المحاولة تنجح لولا مغادرتها (أي عفيفة) للقاهرة على عجل بسبب التزامها بعقد مع أحد الملاهي.

أما الفيلم المصري الوحيد الذي ظهرت فيه فهو ـفيلم .؟القاهرة. بغداد؟ وهو انتاج مشترك (عراقي مصري). وقد كانت عفيفة طيبة القلب وتحمل نفسا زكية وتقدم المساعدة لكل من يطلبها، لذلك فهي تعاطفت مع العديد من الأسر التي احنى عليها الدهر وجار عليها الزمان حيث قامت بتخصيص مرتبات شهرية منتظمة لهذه العوائل لتمكنها من العيش بكرامة.

أخيرا قال الهرمزي عن هذه المطربة الرائعة؟ بعد ان اعتزلت الغناء حاولت ان أجري معها حديثا اذاعيا ولكنها رفضت بحسم وقالت لي اذا كنت ما زلت على احترامك لي فاصرف النظر عن هذا الموضوع؟.

الاستاذ المرحوم صادق الازدي احد رواد الصحافة العراقية وكان لوقت طويل احد المقربين جداً من الفنانة عفيفة وقد تحدث إلينا قبل رحيله بسنوات:

عفيفة مطربة مغناج

بدأ الازدي ذكرياته عن المطربة العذبة الصوت قائلاً: ؟كنت من سهار الليالي ومن الطبيعي ان أعشق الصوت الجميل، وابحث عن الراقصات الرشيقات! ومن الطبيعي ايضاً ان أتعرف على منولوجست جميلة التقاطيع، في صوتها حلاوة، وفي ادائها لمنلوجاتها ما يجعلها اقرب الى القلوب وألصق بالنفوس! وكانت عفيفة شابة مغناج، ولكنها كانت أذكى مما يتصوره بعض رواد اللهو، حيث استطاعت بذكائها أن تلف حولها كل شخصية ذات مكانة في مهنة مأمن المهن، واشتهر عنها حبها لكل ذات جمال ودلال، وهيامها بكل صاحبة صوت يسحر الذين يسمعونه.

اكتسبت المعرفة عن أمها

الفنانة عفيفة دخلت عالم الفن وهي لم تزل في سن صغيرة فكيف اكتسبت هذه المعرفة الفنية التي عرفت بها... سألت الاستاذ الازدي فقال: ؟لانها صغيرة السن عند ولوجها لعالم الفن الكبير ودهاليزه المتعددة ومسالكه الوعرة، فقد التزمتها والدتها وزوجها وعلماها اشياء كثيرة عن هذا العالم الغريب، واستطاعت عفيفة بنباهة تحسد عليها ان تتعلم وتتأقلم مع اجواء الفن، وبسرعة تحولت الى نجمة من نجوم الفن.

سيدة صالون

وماذا عن مجلسها الذي يلتئم فيه الشعراء والادباء وكبار رجال السياسة في البلاد؟

فقال: ؟كانت عفيفة اسكندر في واقعها ليست منلوجست تغرد بمنولوجاتها في دور اللهو والحفلات فحسب، بل كانت سيدة صالون وفي بيتها الأنيق (في حينه) كان يحضر كل من يريد مجالسة حسناء تجيد الحديث، وتروي الطرفة وتتكلم في كل شأن من شؤون الحياة.. وكان مجلسها يضم كبار الشعراء والادباء والفنانين اضافة الى كبار رجالات الدولة من السياسيين آنذاك، وقد يكون بين أولئك من خفق قلبه بحبها، وليس هذا بمستغرب فهي فنانة جميلة الطلعة ولكنها قطعاً كانت تفرق بين زوارها وبين من يخفق قلبها لهم وما أقلهم! وآخر بيت زرتها فيه هو منزلها في منطقة (المسبح) الذي كان صالوناً ايضاً للادباء والسياسيين.

شعراء وأدباء وساسة في مجلسها

من هم أبرز الشعراء والادباء والساسة الذين كانوا من رواد مجلسها؟ فأجاب: ؟هناك بعض رموز الحكم الملكي يحضرون مجلسها اضافة الى بعض نواب مجلس الأمة كفائق السامرائي عضو حزب الاستقلال والنائب حطاب الخضيري وبعض الوزراء، اضافة الى الادباء ومنهم عبدالمجيد لطفي والشاعر اكرم احمد وحسين مردان وجعفر الخليلي وابراهيم علي والمحامي عباس بغدادي ومن الفنانين حقي الشبلي وعبدالله العزاوي ومحمود شوكة واسماء أخرى لا تحضرني.

وعن الأماكن التي تحيي فيها المطربة عفيفة حفلاتها؟ قال الازدي: ؟نظراً لمكانتها الفنية ودورها الكبير في الحركة الموسيقية والغنائية فقد كانت تغني في أرقى ملاهي العاصمة بغداد منها ملهى ؟الجواهري - الهلال - كباريه عبدالله - برداييز) علماً بأن الملاهي كانت سابقاً أفضل من النوادي الاجتماعية الموجودة حالياً؟.

الصحافيون العرب يسألون عنها

من حكاياتها الاخرى التي يتذكرها الاستاذ الازدي كما يقول ان معظم رجال الصحافة العرب يسألون عنها عند وصولهم الى بغداد وبخاصة رجال الصحافة الفنية وكان من حسن حظي أو من سوئه أن أكون من

عبد المجيد لطفي : عفيفة كانت متحمسة لزيارة اوكار الادباء الوجوديين

رواد صالونها فيسألني بعض أولئك الصحافيين الزوار عن دار عفيفة اسكندر واتصل بها هاتفياً وأحدد لهم موعدا واذهب معهم... أنا في غاية الرضى!

وكيف كان ينظر اليها من يحضر مجلسها من الاصدقاء؟ قال: ؟كان هناك أكثر من صعلوك من صعاليك الادب والصحافة ينظرون اليها كما لو أنها دمية من دمى الليل وقد تعرضت من جراء ذلك لتخرصات ولأقاويل عديدة هي براء منها، ولكنها لم تكن تستطيع دفع شر المتقولين عليها... وما كان يمكن أن تفعل اي شيء في بعض الظروف التي مرت بها ذلك لأن بعض المعجبين من العاملين في الحقل السياسي وبعضهم ترتبط بهم بعلاقة صداقة مع عوائلهم.

تساعد المحتاجين

بعض الذين عرفوا الفنانة عفيفة اسكندر قالوا انها انسانة طيبة القلب وهناك من ينعتها بالتعجرف والتعالي، وباعتبارك عرفتها عن قرب فما رأيك بذلك؟

أجاب: ؟لم تكن عفيفة بلا قلب. ولا يمكن ان تكون كذلك... فهي امرأة ممتلئة النفس بالأحاسيس، ينبض قلبها بكل ما هو إنساني، ولا يحس المرء بهذا الا اذا عرفها عن قرب وفي نهاراتها وليس في ليالي الكباريه! الذي تعمل فيه.. وكانت العديد من النسوة من المحتاجات كن يأتين الى بيتها ويأخذن منها المساعدات سرا وينصرفن! وبقلبها الرقيق هذا تعثرت مرة ومرات، وفشلت كل تجاربها القلبية وخرجت منها وهي قوية العود ونجحت في ان تقاوم التيارات لتظل حية صامدة بوجه عوادي الايام وهي مرتفعة الرأس.

أغانيها وسفراتها

هل تحدثنا عن ابرز الأغنيات التي كانت تقدمها، وعن سفراتها الى خارج العراق؟ أكد الازدي: ؟كثيرة الأغاني التي كانت تقدمها المطربة الرائعة عفيفة اسكندر لكني بصراحة كنت ازداد اعجاباً بصوتها عندما تغني (ياعاقد الحاجبين) و (من أين لك هذا.. هذا من فضل ربي) و(ياسكري ياعسلي) و(اريد الله يبين حوبتي بيهم) و(كلب.. كلب) و (غبت عني فما الخبر) و(نم وسادك صدري) وغيرها من الاغاني التي لا تحضرني اسماؤها.

مع مصابني وكاريوكا

أما سفراتها فهي عديدة فمنها ما كان للاستجمام ومنها ما كان لإحياء الحفلات.. فقد زارت تركيا وباريس ولندن وسورية والاردن ودول أخرى اضافة الى مصر التي عملت فيها فترة من الزمن مع فرقة ؟بديعة مصابني؟ المطربة المصرية المشهورة... كذلك عملت مع الفنانة تحية كاريوكا، كما شاركت الموسيقار محمد عبدالوهاب في فيلم ؟يوم سعيد؟ من بطولته وفاتن حمامة وغنت فيه أغنية من ألحانه حذفت قبل عرضه.

مع زوجة نوري السعيد

من ذكريات الازدي تحدث لنا عن لقائه بعفيفة اسكندر في استانبول فقال: ؟كنت أسكن في أحد فنادق استانبول - في سفرة سياحية، وبعد ان تناولت طعام الغداء اخذت قسطاً من النوم.. لكني قفزت من فراشي وانا في عز النوم على اثر رنين الهاتف وعندما رفعت السماعة وجدت ان الفنانة عفيفة هي التي تتحدث على الطرف الآخر فتملكني العجب، اذ انها كيف عرفت بوجودي هنا! فتبين انها نزلت في نفس الفندق مصادفة وسألت صاحب الفندق عن اسماء العراقيين من النزلاء فاختارت اسمي من بينهم واتصلت بي والتقينا وتحادثنا - وطلبت ان تسهر معي واتصلت بأحد معارفها ايضاً في استانبول هو وعائلته كي يمروا علينا لنسهر سوية - وجاءوا اليها وكان أحد كبار رجال الاعمال ومعه ابنته وسيدة مهيبة الطلعة هي زوجة احد اصحاب الفخامة رؤساء الوزارات العراقية وتعرفت عليهم. وألحوا من أجل مرافقتهم - لكني اعتذرت اليهم بلطف - لأني لم أعتد السهر مع أصحاب الملايين والفخامات.

ومن هو هذا الرجل وتلك السيدة بهية الطلعة؟ يقول الازدي: ؟الرجل كان سليمان باشا صاحب معامل فتاح باشا اما السيدة فهي زوجة نوري السعيد رئيس الوزراء آنذاك.

قصة حب ورواية عبد المجيد لطفي

هذه القصة تمثل الفصل السادس من ملفي ؟عفيفة اسكندر... حياتها وفنها؟ وهذه الحلقة كتبها رجل استجاب لمشاعره ولم يتهيب من أحد في الافصاح عنها وتخطى الخوف ليظفر بتلك الراحة التي لا يشعر بها غير الذين يستجيبون لعواطفهم.

سعاد الهرمزي : ظهرت عفيفة لاول مرة على مسرح صغير في اربيل

هذا الرجل هو الاديب الكبير عبدالمجيد لطفي الذي أحب الفنانة الكبيرة عفيفة حبا لا حدود له وكما يقولون في حياة كل رجل مهما كانت منزلته وعقليته فراغ لا تملؤه الا امرأة نمت ونشأت في خياله واحبها عقله الباطني وتلك المرأة كما يقول لطفي هي عفيفة اسكندر التي حركت الاوتار السبعة في قلبه دفعة واحدة. وذلك منذ أول يوم جاء فيه من كركوك الى بغداد في اجازة قصيرة وتعرف على عفيفة في الملهى الذي تغني فيه ومن يومها وجد ان هناك شيئا يجذبه الى بغداد ويبعده عن بلدته كركوك.

الاديب عبدالمجيد كتب كتيبا صغير الحجم عن عفيفة اسكندر ضمنه حبه الاثير لها واعترافاته الجريئة وصدر في عام ١٩٥٣ بعنوان ؟عفيفة... خواطر ادبية؟ من شركة النشر والطباعة العراقية والمدورة في بغداد وبعد انتهاء الزيارة الى بغداد ورؤية عفيفة توقع لطفي ان يكون الامر ليس حبا بل هو اعجاب وربما ينتهي لكنه في كركوك اكتشف ان عفيفة باقية في القلب وتهز اوتاره السبعة لا يمكن ان يمسحها من خياله، كان في كركوك يوصي اصحابه بأن يجلبوا له صور عفيفة من بغداد وعندما تصل الصور يتحفز ليعود الى بغداد مشتاقا الى تلك ؟البنية اليافعة كالاقحوانة؟ وكان قلبه وهو في مكتبه وبين اوراقه يضطرب اضطرابا ؟شديدا كلما ارتفع لها صوت مؤنق رجراج!

كان لطفي يريد الابتعاد عن طريقها لكن الحب كان يمنعه ويغلق عليه كل منافذ الدنيا لأن عفيفة على حد تعبيره (كالشمعة - شمعة ساطعة تضيء الظلمات أمام اوراق كثيرة فتلقي بالبهجة والمرح في صدور المكروبين والتائهين). أما أنا (يقول لطفي): ؟فقد كنت في ظل الشمعة في الظل القريب منها أتلوى بالحرارة وأنا في الظلام؟!

حداد عتيق

يقول لطفي عن أول يوم تحدث فيه مع عفيفة (لا يمكن ان انسى تلك الليلة في القاعة الصيفية حيث كانت تموج وهي تترنح هابطة من المسرح بجمرة الزهو والجمال فقطع احدهم الطريق عليها فصافحته وصافحتنا جميعا وعندما وصلت اليّ قالوا لها انه عبدالمجيد لطفي الرجل الذي تغنى بك عن بعد! فأمسكت بيدي المرتشعة التي تضطرب بجميع مشاعري وقالت وهي ترسم ابتسامة غضة وجميلة على شفتيها أأنت عبدالمجيد؟ انك لتشبه حداد عتيق وارسلتها ضحكة ناعمة!! ثم تكررت اللقاءات بين لطفي وعفيفة وفي كل مرة يجد شيئا مبهما بمزيج من اللهفة والخوف وبشيء غريب على نفسه!

نكتتها ذات طابع خاص

وكانت عفيفة صاحبة نكتة لاذعة لا يجاريها أحد في القائها اذ انها تقدم فيها طابعها الخاص لتبدو جديدة وان كان المرء سمعها غير مرة لأنها صيادة ماهرة للنكات غير البذيئة، كما يتحدث لطفي عن عفيفة بعد زيارتها الى اميركا وعودتها وهي حزينة لأنها لم تحط بما قرأته عنها في المجلات والصحف بل شاهدت اشياء كثيرة لم تسرها ابدا مما جعلها تنكمش قليلا وتحد من غلو كبريائها.

صادق الازدي : هكذا فشلت كل تجارب عفيفة الغرامية

تحب اوكار الوجوديين

لكن (يضيف لطفي) عفيفة كانت متحمسة لزيارة اوكار الوجوديين، اولئك الذين الهبوا خيالها بتصرفاتهم الشاذة وفلسفتهم الضاحكة الساخرة التي لا رابط لها من تقاليد الانسانية وتراثها الاخلاقي كما اكتشفت عفيفة ؟ان النجوم لا تسقط من سماء الناس دفعة واحدة؟ على حد تعبير لطفي كانت عفيفة تتلقى العديد من الرسائل شهريا بعضها يبث الغرام واللوعة ووعود الزواج وبعضها يطلب العون كما كانت تتلقى رسالة يوميا من رجل لمدة سنة يضع فيها اوجاعه وحبه واعتذاره عن عدم رؤيته لها لانشغاله بأعماله الكثيرة، كما تلقت رسائل ادبية فيها مساجلات حول أمور الادب والفن والثقافة عموما ويقول لطفي لقد كتبت رسائل عدة لعفيفة مضمنة بعواطف الحب وكنت اظن ان رسائلي ستكون ذات قيمة لديها حتى علمت انها لا تحتفظ بالرسائل اما الرسائل التي تتضمن القصائد فهي لا تأخذ بها لتغنيها لأنها صديقة المتنبي والبهاء زهير وسناء الملك وتختار من دواوينهم اجمل القصائد.